العرب
الأربعاء 2020/02/12
السنة 42 العدد 11615

الصورة الكبيرة في سوريا

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

هناك توزيع أدوار في الشمال السوري ولكن على حساب الشعب السوري. تشير آخر الأرقام الصادرة عن الأمم المتحدة إلى أن هناك 700 ألف نازح سوري جديد من شمال غرب سوريا. إنّه رقم مذهل يعكس إلى حدّ كبير حجم المأساة التي يتفرّج عليها العالم منذ سنوات عدّة.

يبدو أن تركيا تريد تحقيق هدفها المتمثل في إقامة منطقة آمنة بعمق 35 كيلومترا داخل الأراضي السورية. يحصل ذلك بالاتفاق بين أنقرة وموسكو التي تريد أن تكون هناك سيطرة لقوات تابعة للنظام، بدعم من الميليشيات التابعة لإيران، على الطرق الرئيسية مثل طريق حلب – حماة وطريق جسر الشغور – حلب.

هذه، كما يظهر، الخطوط العريضة للمعركة الدائرة في الشمال السوري والتي تشمل إدلب. من الواضح أن هناك تفاهمات روسية – تركية وهناك حرص أميركي على دور تركي من ضمن إطار عام متفق عليه بين واشنطن وأنقرة.

آخر دليل على أن مصير سوريا آخر ما يهمّ أردوغان إرساله مقاتلين سوريين إلى ليبيا لخوض معركة لها علاقة بكلّ شيء باستثناء سوريا والسوريين

في انتظار أن تصبح الصورة أكثر وضوحا تتجدّد المأساة السورية يوميا ويزداد النزوح السوري. ليس ما يشير إلى أن الحرب السورية انتهت. لا تزال هذه الحرب في بدايتها على الرغم من مرور كلّ هذه السنوات عليها. الثابت الوحيد أن النظام القائم منذ خمسين عاما لا مستقبل له من جهة وأن سوريا التي عرفناها لم تعد موجودة.

لم تعد سوريا مفتّتة فحسب، بل ثمة حاجة أيضا إلى ما بين 250 و300 مليار دولار لإعادة بناء ما تهدّم في السنوات التسع الأخيرة. من سيوفّر مثل هذا المال يوما؟ كلّ ما في الأمر أن هناك إصرارا لدى النظام على رفض الخروج من دمشق حتّى لو كان ثمن ذلك نهاية سوريا.

يظلّ العنوان الذي اختاره سام داغر لكتابه عن سوريا العنوان الأفضل لاختصار ما يشهده هذا البلد. العنوان هو "الأسد أو نحرق البلد". تحترق سوريا ولن تقوم لها قيامة من أجل بقاء بشّار الأسد في دمشق. لم يعد بقاء الأسد يقدّم أو يؤخر في شيء ما دام أدى الدور المطلوب منه أصلا. يتمثّل هذا الدور في تدمير سوريا التي كانت مرشّحة قبل وصول البعث، بشعاراته الفارغة إلى السلطة في الثامن آذار – مارس 1963 لتكون دولة مليئة بالحياة والنشاط التجاري والمالي، دولة قابلة لأن توفّر نموذجا يحتذى به في المنطقة كلّها.

ما كشفته تطورات الأسابيع الأخيرة أن تركيا تعرف ماذا تريد وأن أهدافها محددة. هذا ما يعرفه الأميركيون أيضا وهذا ما يعرفه الروس بدورهم. تحصل بين الحين والآخر تجاذبات بين موسكو وأنقرة. لكن هذه التجاذبات ما تلبث أن تجد طريقها إلى تسويات غالبا ما تتم على حساب السوريين.

ما لا يغيب عن البال في أيّ وقت أنّ تركيا لعبت منذ البداية كلّ الأدوار التي ساهمت في وصول هذا البلد إلى ما وصل إليه. صحيح أنّها أقدمت على خطوات إيجابية عدّة من بينها استضافة مئات آلاف السوريين، لكنّ الصحيح أيضا أنّ رجب طيّب أردوغان باع السوريين أوهاما كثيرة قبل أن يتبيّن أنّه يعاني في الوقت ذاته من عقد كثيرة من بينها عقدة من يعتقد أنّه الزعيم الذي لم يولد مثله في المنطقة كلّها. لعلّ آخر دليل على أن مصير سوريا آخر ما يهمّ أردوغان إرساله مقاتلين سوريين إلى ليبيا لخوض معركة لها علاقة بكلّ شيء باستثناء سوريا والسوريين.

لا بدّ هذه الأيام من النظر إلى الصورة الكبيرة وليس إلى ما يجري في الشمال السوري فقط. تقول الصورة الكبيرة إنّ ما يدور في سوريا هذه الأيّام جزء لا يتجزّأ من التغييرات التي تشهدها المنطقة، بما في ذلك انحسار الدور الإيراني. هذا لا يعني في طبيعة الحال أن الدور الإيراني لم يعد موجودا في سوريا، بل يعني أنّ روسيا صارت أقرب إلى الإمساك بخيوط كثيرة في دمشق. ما يعطي فكرة عن التقدّم الذي حققته روسيا في سوريا على الصعيد السياسي الزيارة التي قام بها لدمشق الرئيس فلاديمير بوتين قبل نحو شهر ونصف شهر. لم يكن صدفة أن الزيارة جاءت مباشرة بعد تصفية الإدارة الأميركية لقاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري" الإيراني الذي لعب دورا محوريا في تمكين بشّار الأسد من البقاء في دمشق.

لم يكتف بوتين باستدعاء بشار الأسد إلى قاعدة روسية في دمشق، بل حرص على زيارة الجامع الأموي والبطريركية الأرثوذكسية في إشارة إلى تركيز روسي على أهمّية أهل السنّة من جهة وعلى علاقتها المتميّزة بالأقليّة المسيحية من جهة أخرى. هذا لا يعني انتفاء الحاجة الروسية إلى إيران. لا تزال روسيا في حاجة إلى الميليشيات التابعة لإيران على الأرض السورية نظرا إلى أن تدخلها العسكري يعتمد على سلاح الجو أكثر من أيّ شيء آخر.

ما يفترض في بلد مثل لبنان دخل مرحلة الانهيار عمله هو تفادي الهرب بمشاكله إلى موضوع اللاجئين السوريين. هناك واقع لا يستطيع لبنان تجاوزه. ما لا يستطيع الهرب منه هو أنّ اللاجئين السوريين لم يتسببوا بالانهيار اللبناني. ما تسبّب بالانهيار هو "عهد حزب الله" الذي بدأ عمليا مع انتخاب ميشال عون رئيسا للجمهورية في 31 تشرين الأول – أكتوبر 2016. قبل أن يبدأ هذا العهد، الذي أزال كلّ جدار كان يفصل بين مؤسسات الدولة اللبنانية و"حزب الله"، لعب سلاح الحزب دوره في إغراق لبنان في المستنقع السوري. تسبّب الحزب بتهجير عشرات آلاف السوريين إلى لبنان في ضوء مشاركته المباشرة في تطهير مناطق في محيط دمشق وفي محاذاة الحدود اللبنانية من الذين ينتمون إلى أهل السنّة. هذا ما يرغب فيه النظام. وهذا ما ترغب فيه إيران التي تعمل من أجل تغيير في الطبيعة الديموغرافية لسوريا.

في كلّ مرّة يطرح فيها الموضوع السوري، لا مفرّ من العودة إلى الصورة الكبيرة التي تعني، بين ما تعنيه، أن الرهان على النظام السوري ليس في محلّه. هناك تفاهمات على خطوط عريضة تتبلور يوما بعد يوم في ظلّ خمسة احتلالات هي الإسرائيلي والأميركي والروسي والتركي والإيراني. ما هو مؤسف بالفعل ألّا تكون في لبنان قيادة سياسية تستطيع استيعاب تعقيدات الوضع السوري بعيدا عن "سياسة الضيعة والناطور" أي السياسات المحلّية الصغيرة. ما هو مؤسف أكثر أن النزوح السوري لن يتوقّف غدا وأن الحرب السورية دخلت مرحلة جديدة، بل صارت أكثر تعقيدا مما كانت عليه في الماضي القريب، أي منذ اندلاع شرارة الثورة في آذار – مارس من العام 2011!

الثابت والمتغير في الأزمة السورية

بهاء العوام
صحافي سوري

تؤنب الولايات المتحدة تركيا لأنها نصحت الرئيس رجب طيب أردوغان بعدم الوثوق بنظيره الروسي فلاديمير بوتين، ولم يستمع لها. وكأن واشنطن كانت أكثر وفاءً لأنقرة من موسكو وأن الرؤساء الأميركيين، على عكس الروس، وعدوا فصدقوا مع حلفائهم الأتراك والأكراد وفصائل المعارضة السورية.

يظن الأميركيون أن الروس خذلوا الأتراك في إدلب. والحقيقة أن هذا التوصيف يجافي الحقيقة تماما. حتى لو افترضنا أنه صحيح ولا يشوبه الشك، فلا يحق لواشنطن التنظير فيه، لأنها كانت أول من بدّل المواقف وخذل الحلفاء في الأزمة السورية.

عندما خرج الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما قبل ثماني سنوات ليقول إن الرئيس السوري بشار الأسد فقد شرعيته وبات عليه الرحيل، كان الرئيس الروسي يقول إن الأزمة السورية شأن بعيد عن حدود بلاده ولا يفضل حتى إبداء الرأي فيه. تمر السنون وتسمع الأميركيين اليوم يقولون إنهم لا يريدون إزاحة الأسد عن السلطة، ولا يريدون إخراج روسيا من سوريا. أولوياتهم في هذه البقعة من العالم باتت الآن تتمثل بمحاربة الإرهاب وتقليم أظافر إيران في الشرق الأوسط.

تبدلت أولويات الولايات المتحدة في الأزمة السورية إلى هذا الحد. وتبدلت معها قائمة الحلفاء أيضا، ليس فقط في الدول وإنما في الفرقاء السوريين أيضا. الحلفاء الذين صنعهم أوباما باعهم خلفه دونالد ترامب. بعضهم تبيّن لترامب أنه إرهابي ولا يستحق الدعم الأميركي، مثل بعض فصائل المعارضة المسلحة. وبعضهم الآخر منخرط في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل. وهنا نتحدث عن الكرد الذين قاتلوا داعش مع الأميركيين، ومن ثم اكتشف ترامب أنهم يحاربون الأتراك في معركة وجودية بدأت قبله وربما لن تنتهي أبدا، على حد وصف الرئيس الأميركي.

من المفارقات التي تُستدعى للتدليل على السياسة الأميركية الانتهازية في سوريا أيضاً، يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر، أن التنسيق الروسي الأميركي في الحرب هناك لم ينقطع لا في عهد أوباما ولا في عهد ترامب. عندما كان أوباما يفاوض طهران في الاتفاق النووي لم تكن إسرائيل ترى خطورة في الزحف الإيراني البربري داخل سوريا، أما عندما انسحب ترامب من الاتفاق دأبت الطائرات الإسرائيلية على دك كل تحرك عسكري إيراني في سوريا مهما كان صغيرا وهامشيا.

لا تريد الولايات المتحدة أن تعترف بأن تبدل أولوياتها في سوريا مرات عدة خلال السنوات الماضية، دفع جميع الدول التي جلست معها يوما على طاولة ما يسمى بـ"أصدقاء الشعب السوري" إلى تبديل مواقفها هناك. كان من المفترض أن تكون واشنطن رأس حربة في معركة تغيير نظام بشار الأسد. وعندما تبين أن معركتها تدور في مكان آخر، باتت جميع الدول المؤيدة للمعارضة السورية في حل من التزاماتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، وحتى الأخلاقية. لا استثناء في ذلك لأي دولة، بما فيها تركيا التي تتباكى على حال المدنيين في مدينة إدلب اليوم.

الثابت الأول في الأزمة السورية كان ولا يزال منع انهيار مؤسسات الدولة وإحداث فراغ سياسي في البلاد على غرار العراق وليبيا واليمن. لا يهم كم هي الدولة هشة، وكم هي مؤسساتها معطلة أو في أدنى مستويات إنتاجها وخدمتها للسوريين. المهم أنها موجودة وقائمة لتكون أساسا لحل سياسي للأزمة لم يأت حتى الآن. ربما لن يأتي الحل أبدا، وربما تنجح موسكو في إعادة شرعية الأسد بانتظار هذا الحل. لا ضير في هذا طالما أن الدول المعنية، تركيا وإيران والولايات المتحدة، تستطيع حماية مصالحها في سوريا، وتؤسس لحضور دائم هناك يعيد رسم خرائط البلاد والمنطقة ككل لعقود عديدة مقبلة. وهذا هو الثابت الثاني في الأزمة.

مقابل هذين الثابتين كل شيء يتغير ويتبدل في سوريا. ليس بهامش بسيط وإنما باستدارات تصل إلى 180 درجة في بعض الأحيان. خصوم تحولوا إلى أصدقاء، معارضون انقلبوا إلى مؤيدين، ثوار باتوا مرتزقة أو إرهابيين، حلفاء أصبحوا أعداء، قادة أضحوا خونة، وانتصارات تبدلت إلى هزائم. الأمثلة كثيرة على ذلك.

وفي خضم التبدلات في مسارات الدول والأشخاص، تغيرت خرائط الميدان مرات عدة. وفي كل مرة يرسم الروس والإيرانيون والأتراك والأميركيون الخرائط الجديدة دون سواهم، بينما يعاني السوريون وبقية دول العالم من التداعيات.

ما يحدث في إدلب اليوم لا يخالف القاعدة أبدا. حان الوقت لرسم خرائط جديدة في الشمال السوري. يترقب الجميع مصافحة قريبة لأردوغان وبوتين، وفي الصورة يظهر ترامب وخامنئي مباركين لما تم الاتفاق عليه. لم يحن الوقت بعد ليسترد الجيش السوري الحدود مع تركيا. سيتوقف القتال في مكان ما، تكمل منه أجهزة الاستخبارات والقنوات الدبلوماسية ما بدأته الطائرات والدبابات. لا يريد أردوغان احتلال مدن في سوريا، وإنما يريد حدودا جنوبية لبلاده أكثر رحابة وأقل كردية. الروس والأميركيون والإيرانيون يتفهمون ذلك. وحتى نظام دمشق لا يمانع أبدا.

لم يعد الأميركيون يريدون إزاحة الأسد ولا إخراج روسيا من سوريا. أولوياتهم في المنطقة باتت الآن تتمثل بمحاربة الإرهاب وتقليم أظافر إيران في الشرق الأوسط

المعارك الدائرة في إدلب اليوم ليست نهاية الحرب. هناك جولات أخرى ستدور رحاها لاحقا. لم يعد أحد يمتلك مفاتيح الحل في سوريا. ورغم أن جميع الدول المعنية تحتاج لإنهاء الحرب هناك، كل لأسبابه طبعا، إلا أن الخيار الوحيد المتاح أمامها الآن هو التكيف مع المتغيرات التي تحدث بفعل الزمن في السياسة والميدان. ولأن هذه المتغيرات لا تؤثر في الثوابت القائمة، ولا تأتي بجديد حتى الآن، لا يزال الانتظار هو جل ما يملكه السوريون في حياتهم داخل وخارج بلادهم. و"كل ما يفعله الانتظار هو مراكمة الصدأ فوق أجسادنا".